حَوْلَ رَدِّ العَامِّيِّ إلى الأصْل*

للأستاذ الدكتور محمد هيثم الخياط

كان في مقدِّمة مَنَاسِكِ جنيف ، التي أنسُكُ إليها، في العَقْدَيْن المـاضيين، أن أزور الدكتور زكي علي، وهو كمـا وصفه - بحق-الأستاذ عجاج نويـهض ، في رسالةٍ عنـدي بخطّـه: "خـيرةُ المؤمنيـن ، وصفـوة المجـاهدين المهاجرين". فقـد كـان- رحمـه الله وأحسن إليه- على ثغـر مـن ثغـور الإسلام في جنيف التي مكـث فيـها خمسةً وستين عامًا ، منافحًـا بلسـانه وقلمه ، إلى أن اختاره الله إلى جـواره في الشهر الماضي ، وكان قـد وَفَـدَ إليها تلبيةً لدعوة من الأمير شـكيب أرسلان رحمه الله سنة أربع وثلاثين ، ثم توثَّقـت بينـهما صـلات المـودّة الخالصة ، والجهاد المشـترك لخـير الإسلام والعرب في مشـارق الأرض ومغاربها، وهو أمرٌ كـان معـروفًا فمـن عرفهـما حقَّ المعرفة،كالأستاذ بقوله : " وإني أعلم جيدًا مـا بينكـم وبين الأمير شكيب رحمه الله من رفقة وصحبة، وأخـوَّة ومـودّة، وشـركة مباركة في هذه القافلـة ، فقـد كـان -جزاه الله خـيرًا - يذكركـم الذكـر الجميل في كتبه ورسـائله ومقالاتـه، وهو يَعدُّكم من عُدَّته، وأنتم ممّن كـان بهم يعتضد وإليهم يستند " .

وفي زيارة إليه قبل خمس عشـرة سنة، ذَكَرلي أن عقيلة الأمير شـكيب أهدت إليه بعد وفاة الأمـير ، خمـس كراريس بخطّـه، عنوانُـها " القـول الفصل في ردِّ العامّي إلى الأصل " . وقد تكرّم الدكتور زكـي فأهدانيـها ، وتمنَّى عليَّ أن أنشرها معلِّقًـا عليـها بما تدعو إليه الحاجة .

وقد وجدت أن هذه المجموعة تنقصها

*ألقى هذا البحث فى الجلسة السادسة من الدورة الخامسة والستين يوم الخميس٢٣ مـن ذى القعدة سنة ١٤١٩هـ الموافق ١١ من مارس (آذار) ١٩٩٩م.

الكرَّاسة الأولى، والتي يُفْتَرَضُ أن يكون المؤلف قد أعرب فيها عن مقصده، وفصَّل القول في مذهبه، في مقدِّمةٍ لا يمكن أن يقوم فيها أحد .

ومن أجل ذلك أرجأتُ نشر هذا الكتاب، ريثما أعثر على الكرَّاسة الأولى، وكتبت إلى كلٍّ من توسَّمتُ فيه معرفة ذلك ، دون طائل .

ثم رجوتُ الأخ الدكتور وليد عمار، وهو صديق مشترك لي وللأستاذ وليد جنبلاط، حفيد الأمير شكيب ، أن يسأله عنها فتكرم وأرسل إليَّ بكتاب منشور ، عنوانه كعنوان الكراريس، ولكن مقدّمة محققهِ الأستاذ محمد خليل الباشا، تحمل على بعض الشك فيه : فهي تتحدث عن دفتر كبير بخط الأمير شكيب، وتذكر أن " في هذا الدفتر مئة وسبعًا وتسعين صفحة غير مرقَّمة ، فُقِدت الصفحة الأولى منه، التي تحمل اسم الكتاب ومؤلِّفَه وموضوعَه ، لكن هذا سهل تداركه . فالخطُّ يدلُّ على صاحبه،والبحث يدل على موضوعه، أما الاسم فنجده عند من ذكروا أسماء مؤلفات الأمير غير المطبوعة ، وبينها كتاب " القول الفصل في ردّ العامّي إلى الأصل" وسمّاه غيرهم " إصلاح العامّية " ولا ريب في أن هذا هو المقصود ، فاخترنا أن نتَّخذ له التسمية الأولى ".

وقد قدّم المحقِّق للكتاب بمقدِّمة نافعة ، وجعل الكتاب في ثلاثة أقسام: أولُها ــ " ردّ العاميّ إلى الأصل " وثانيها ــ " شذرات لغوية " وثالثها" ــ من كلام البُلغاء " ونشر صورا زنكوغرافية لبعض الصفحات يتبيَّن منها أن القسم الأول يؤلف الجزء الأخير من الدفتر، ويتقدّمه القسمان الآخران. وهذا القسم الذي يهمّنا، فيه كثيرٌ من الفِقرات والعبارات المشتركة مع الكراريس التي بين يديّ، ولكن كثيرًا منها يوجد في أحدهما فحسب، من أجل ذلك أميلُ إلى أنَّ الكتاب المنشور، إن لم يكن ما أطلق عليه بعضهم " إصلاح العاميّة " فإنه جزء

آخر من " القول الفصل" كُتِبَ في حِقبة أخرى غير تلك التي كُتَبت فيها الكراريس التي بين يديّ .

* * *

والحديث عن العاميّة والفُصحى حديثٌ قديم، نشأ مع الكتب الأولى التي ألّفها عددٌ من العلماء الغُيَّر على لغة التنزيل العزيز، مِمَّن أفزعهم أن يتطرَّق إليها اللحن ، وهو كما يقول أحمد بن فارس : " إمالة الكلام عن جهته الصحيحة في العربية " وهو في رأيه "مُحْدَثٌ، لم يكن في العرب العاربة الذين تكلموا بطباعهم السليمة " أما أبو الطيب اللُّغوي ، فذكر أن " اللحن ظَهَرَ في كلام الموالي والمتعرّبين من عهد النبي ﷺ ، فقد رُوي أن رجلاً لَحَنَ بحضرته، فقال: أرشدوا أخاكم ".

ثم تَوَاصَلَ التأليف في لحن العوامّ على اختلاف الأزمنة والأمكنة، مما لا مجال للحديث عنه في هذه العُجالة ، اللهم إلا أن نذكر أن المجمعي الجليل المرحوم الأستاذ عيسى إسكندر المعلوف ، نَشَرَ في مجلة هذا المجمع الموقر،قبل لواذ ستين عامًا ، جريدةً مطوّلة بأسماء هذه المؤلفات في القديم والحديث، يمكن الرجوع إليها لمن شاء التوسُّع في هذا الموضوع .

وإنَّك لَوَاجِدٌ في ما يصحِّح هؤلاء وأولئك مما يعتبرونه من أغلاط العامّة والخاصّة ، تباينًا كبيرًا يختلف باختلاف المستوى الصوابي الذي يتَّخذونه ويلتزمون به ، أي المعيار اللغوي الذي يرضى عن الصواب ويرفض الخطأ في الاستعمال . بل إنك لتجد بعضهم يَرُدُّ على بعضٍ في تصويب بعضِ ما خطَّأه أو تَخْطئَةِ بعض ما صوَّبه ، فابن هشام اللَّخمي مثلاً في كتابه : " المدخل إلى تقويم اللسان وتعليم البيان " ، يَرُدَّ على تخطئة أبي بكرٍ الزُّبَيْدي في" لحن العامة" قول العامّة " سكرانة " ، فيقول له : " فإذا قالها قوم من بني أسد فكيف تلحن بها العامة ، وإن كانت

لغة ضعيفة ، وهم قد نطقوها كما نطقت بعض قبائل العرب؟ " وابن السِّيد البَطَلْيوسى في "الاقتضاب" يَرُدُّ ما ذكره ابن قتيبة في " أدب الكاتب " أنَّ قول الناس : " فلانٌ يتصدّق أي يسأل..غَلَط، فيقول: "وقد حكى أبو زيد الأنصاري ، وذكر قاسم بن أصبغ عنه أنه يُقال : تصدَّق إذا سأل ، وحكى نحوَ ذلك أبو الفتح ابنُ جني، وابنُ الأنباري ، وصاحبُ كتاب العَيْن".

فمقياس الصواب عند المتشدِّدين المعسِّرين هو الأفصح ، وما عداه لحن.وهو عند المتساهلين الميسِّرين: كلُّ ما تكلمت به العرب، وما قيس على كلام العرب فهو صواب. ويلخّص هذا الموقف الأخير قول ابن هشام اللَّخمي في " المدخل" : " روى الفرّاء أن الكسائي قال : على ما سمعت من كلام العرب ليس أحد يلحن إلا القليل.وقال الأخفش عبد الحميد بن عبد المجيد: أنحى الناس مَنْ لم يلحِّن أحدًا؛ وقال الخليل:" لغة العرب أكثر من أن يلحن متكلم"، ومثلُ ذلك قولُ ابن جني في " الخصائص":"فالناطق على قياس لغة من لغات العرب مصيب غيرُ مخطئ ، وإن كان غيرُ ما جاء به خيرًا منه". وقول ابن السِّيد في " الاقتضاب" : "وقد أنكر الأصمعي أشياء كثيرة كلُّها صحيح ، فلا وجه لإدخالها في لحن العامّة من أجل إنكار الأصمعي لها " .

* * *

وبعد ، فأنت مستطيعٌ أن تَسْلُك الذين كتبوا في لحن العامة وتقويم اللسان وإصلاح الفاسد في القديم والحديث، في إحدى فئتَيْن اثنتَيْنِ : فئةٌ تُقَرِّع الذين ينحدرون عن مستواها الصوابي تقريعًا ، وتخاطب الذين هم مخطئون في نظرها بلهجة كلُّها تَعَالٍ وأفعالُ أمرٍ وزَجْر : قُلْ ولا تَقُلْ ! فتُشْعِر المخاطَبين من العامة بالخزي والتقصير، وتكاد تقضي على كل أمل لهم في أن يُحسنوا التحدُّث باللسان الفصيح يومًا ما وفئةٌ تخاطب العامة بالتي هي أحسن، وتتَخيرُ من كلامهم

ما يَمُتُّ إلى الفصاح بسبب فتسلّط الضوء عليه وتلفت النظر إليه ، وتقول لهم، بلسان الحال إن عاميّتكم وليدة الفصحى بدليل هذه الكلمة التي تنطقونها كذا وأصلها كذا وهو قريب: فتبعث في نفوسهم الأمل بأنهم من اللغة الفصيحة قاب قوسين أو أدنى، وترغّبهم في اقتحام العقبة ترغيبًا . وشتّان ما بين الفئتين.

والمؤسف أن جُلَّ من كتبوا في الماضي والحاضر ينتمون إلى فئة الذين ينهون عن المنكر بغير المعروف ، حتى يكاد ينطبق عليهم قول النبيّ ﷺ :"إن منكم منفرين"؛ وأن قُلَّهم يندرجون في فئة الذين يلتزمون الهدي النبوي الكريم:" يسِّروا ولا تعسِّروا، وبشِّروا ولا تنفّروا " . ومن هؤلاء أستطيع أن أعدّ محمد بن أبي السرور الصدّيقي من أهل القرن الحادي عشر للهجرة في كتابه: "القول المقتضب فى ما وافق لغة أهل مصر من لغة العرب" وابن الحمَّالى فى كتابه : "بحر العوام في ما أصاب فيه العوامّ "؛ وفي عصرنا هذا " بقايا الفصاح " وهي سلسلة مقالات كان يفتتح بها الأستاذ شفيق جبري رحمه الله أعداد مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق ، وكتاب : رد العامّى إلى الفصيح " للشيخ أحمد رضا العاملىّ، وكتابنا هذا: " القول الفصل في ردّ العامي إلى الأصل " ، وأختم بمختارات منه .

* * *

ويقولون للجواد الذى يسبق غيره في السباق إنه " فضح الخيل " أي بذَّها في العَدْو وكشف عيبها ، وهو استعمال صحيح فصيح .

ويقولون "بَطَحَه" بمعنى صَرَعَه أو ألقاه على وجهه، وهو فصيح صحيح ومستعمل في أكثر البلاد العربية .

ويقولون عندنا " تَحَلْحَلَ " بمعنى انصرف وذهب ، وهو صحيح فصيح؛ ففي اللغة: " حلحلَ القوم أزالهم عن موضعهم " ، وتحلحل هو مطاوع

حلحل ويقال في اللغة : " فـــلانٌ مـــا يتحلحل مـــن مكانـــه" وقـــالت ليلـــى الأخيلية:

مقيمٌ طوال الدهر لن يتحلحلا .

ويقولون عندنا " قح" بمعنـــى سَـــعَل ، والذين يبدلون القاف همزة يقولون"أح" وقد جاء في اللغة "أح" بمعنى سَعَل أو بمعنى تنحنح ؛ راجع لســـان العـــرب وغيره .

إذًا تكون "أح" هي الصحيحة . ويقـول الشيخ محمد علي الدسوقي المصـــري صاحب "تهذيب الألفاظ العاميـة" : إن أهل الدقهليـــة بمصـــر يقولـون "أح" بمعنى سَعَل ولكن أكثر سكان القطـــر المصري يقولونها بالكاف أي "كـــح"؛ قال : ولم أره في كتب اللغـــة بـــهذا المعنى. قلت: قولـــه هـــذا صحيـــح ، والأظهر أن أصل اللفظة بالبـــهمزة أي "أحّ" فجعلها العامة بالقاف وقالوا "قـحّ" لأنه كما يوجد من العامة مـــن يقلـــب القاف همزة ، يوجد منهم مـــن يقلـــب الهمزة قافًا أحيانًا. ثم بعد أن صـــارت "قح" تلفَّظ بها البدو بالقاف المعقـــودة وهي بين القاف والكاف، ثم صـــارت هذه بالتدريج كافًا فقالوا "كَـــحّ" وهـــي كذلك في مصـــر والمغـــرب وأكـــثر البلاد.

ويقولون في لبنان " استاهل الشيء" أي كان له أهلاً ، ويســـهلون همـــزة استأهل، وهذا يقولونه في كل الشـــام ومصر والمغرب وأظنه مستعملاً فـــي جميع البلدان العربية وهو فصيح .

عن الأزهري : سمعت أعرابيًّا فصيحا من بني أسد يقول لرجل شكر عنده يدًا أوْلاها : تستاهل يا أبا حازم ما أوليـت

وأنشد حمّاد عن أبيه :

جفانا أبو صالح بعدما
أقام زمانا لنا واصلا
فلما ترأَّس في نفسه
وليس لذلك مستاهلا

وأنكر آخرون هذا الاستعمال ...

ويقولون في لبنان :"أفّ" وهو اســمُ فعل بمعنى أتضجّر، وهو مستعمل في مصر والشام والمغرب وجميع البـــلاد العربية ، وهو من أفصح الفصيـــح ؛ قال الله في كتابه العزيز (ولا تقل لهما

أفّ ولا تنهرهما) .

ويستعملون في لبنان "الحركشة" بمعنى التحريك والتأريث ، وأصلها بالثاء لا بالشين كما تقولها العامّة . والحركثة في اللغة الزعزعة. نعم !قد أهمل هذه اللفظة الجوهرى ولم ترد في لسان العرب، لكن ذكرها الصاغاني ونقلها صاحب تاج العروس.

ويقولون عندنا لحوض الماء الذي يُحفر في الأرض :"بِرْكَة "بكسر أولها ويجمعونها على " برَك " وهذا فصيح صحيح وارد في كتب اللغة.قال الأزهري : ورأيت العرب يسمّون الصهاريج التي سُوِّيَتْ بالآجر وصُرِّجتْ بالنورة في طريق مكة ومناهلها بركًا واحدتها بركة ورُبَّ بركةٍ تكون ألف ذراع أو أقل أو أكثر، وفي بلادنا أيضًا يقولون بركة للصهريج ويقولون للصهريج بركة. وقد يقولون بركة للبحيرة مثل قولهم بركة الحولة وبركة الهيجاني . وفي مصر يقولونها حتى للبحيرة الملحة كما ذكر الدسوقي صاحب" تهذيب الألفاظ العامية ". وأظن هذه اللفظة ، أي البركة ، مستعملة في جميع البلدان العربية ومثلها الصهريج ، إلا أنهم في طرابلس الغرب حرّفوا الصهريج إلى الشهريز . والبركة هي من الألفاظ العربية التي دخلت في اللغة الإسبانيولية وهي كثيرة جدًّا ولما كنت في الأندلس صادفت في قرمونة من نواحي إشبيلية امرأة تغسل ثيابًا في مستنقع صغير من الماء فقلت لها: الجُبّ ؟ قالت no (أي لا) ثم قالت : البركة ، أي إن هذا لا يقال له الجب بل البركة .

ويقولون " المَطَرة " بالتحريك للقربة أو لوعاء من جلد يحفظ به الماء، وهو فصيح مسموع عن العرب.

وكنت في سفر وكانت معنا رفقة عراقيون، فقال أحدهم لنشرب من هذه الثَّميلة يريد ماء باقيًا من المطر في

مطمئن من الأرض، وهـذا فصيـح، فالثَّميلة بفتح أولها علـى وزن حَليلـة هي البقية من الماء.

وتقول العامّة عندنا "طريق نـافذ" و"طريق سالك" وهو من الفصيح كما جاء في مخصص ابن سيده .

وفـي حـوان يقولـون للأجـانب "أجناب" وهو صحيح .

وتقول العامة في لبنان للماء"مُوَي" وأحيانًا "مُوَيّه" وصواب الأول "مُوَيْـه" بالهاء ، وهو تصغير " ماء " فـأصل الماء"مَوَه" بفتحتين، قلبت الـواو ألفـا لتحركها بعد الفتحة، ثم أبدلت الـهاء همزة ، فلهذا لما جاؤوا إلى التصيغـر قالوا"مُوَيْه" بضم ففتح فسكون. وقـد ورد عن العرب "الماه" بمعنى المـاء، وورد أيضًا " الماءة " بمعنـى المـاء وأصلها "الماهة" وتصغيرها " المويهة" وقال سيبويه في " مُوَيْه " إنـهم ردّوا إليه الهاء كما ردوها حين قـالوا فـي الجمع مياه وأمواه ، " فأنت تـرى أن عاميتنا لا تخطئ في هذه اللفظـة إلا أنه يجب تحقيق الهاء فيها حتى تتـم صحتها فيقال مُوَيّة ومُوَيْهَة .

* * *

وبعد فهذه بضعة أمثله تمثّـل لـهذا الكتاب النفيس ويكفيك من القلادة مـا أحاط بالعُنُق.

* * *

محمد هيثم الخياط

عضو المجمع المراسل

من سورية